تناصات المتنبي مع الثقافة العالمية

الدكتور محمد تقي جون

كلية التربية – جامعة واسط

مقدمة

كان لابد لشاعر إنساني كبير بحجم المتنبي أن يتناص فكراً وروحاً مع شعراء وعلماء وثقافات إنسانية حية، وكانت النظرة القاصرة جداً من النقد العربي المحافظ قد جعلت المتنبي أكبر سارق بدلا من أن يكون أكبر متماس مع كل فكرة سامية كانت قبله أو جاءت بعده؛ فقد اتهمه الصاحب بن عباد بأنه " إذا انشد شعر أبي تمام قال: هذا نسج مهلهل وشعر مولد، وما اعرف شاعركم هذا وهو دائب يسرق منه، ويأخذ عنه ثم يمزج ما يسرقه في أقبح معرض.. ولو آتي على أفراد سرقاته لطال ذلك"[١]، وزعم العميدي انه تأمل أشعاره كلها فوجد الأبيات التي يفخر بها أصحابه "من أشعار المتقدمين منسوخة، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة"[٢].

وقد أوغل العميدي في ظلمه له حتى اتهمه بسرقات مفضوحة التهافت؛ فقد اتهمه بالسرقة من بديع الزمان الهمذاني الذي ولد بعد وفاة المتنبي بأربع سنوات[٣]! واتهمه أيضا بالسرقة من شخصية وهمية هو أبو الفتح الاسكندري بطل مقامات البديع[٤]. وسبب ذلك يعود إلى النقد العربي الذي يرى ان المبتدَع والمخترَع في الشعر قليل؛ فمهما احترس الشعراء فإنهم سيقعون في السرقة[٥]. فالجاحظ يرى ان المتقدمين قالوا كل شيء ولهذا فالمعاصرون لابد ان يكونوا شركاء في معانيهم سرقة أو استعانة[٦]. على أن موضوعة السرقات أريدت حجر عثرة في طريق الشعر الجديد المعتمد على المعاني؛ توليدها واستيفائها[٧].

إن موضوع البحث لم يعن بالأدب العربي، إذ اتجه البحث إلى آداب الأمم الأخرى الحية ليدرس التناص بين المتنبي وبينها. وتأتي أهمية هذا الموضوع في جِدَّته كل الجِدَّة لأنه يبحث في النقاط المتناظرة بين أدبين بعيدين زمانا ومكانا ويصعب أحياناً تأكيد أخذ بعضها من بعض.

وقد جاءت فكرة البحث نتيجة قراءتي المتعمقة لشعر المتنبي والأدب والفكر العالميين، إذ قادني ذلك إلى اكتشاف تشابه واضح بين أدب المتنبي وثقافة العالم الآخر، ولعل هذا التشابه يعود في خطوطه العريضة إلى إنسانية وحيوية كل من الأدبين، وان سمو المتنبي وشاعريته الفذة لابد من أن تجعله يلتقي الذي بمستواه رقيَّاً وسموَّاً.

وقد أقصرت البحث على تناصات بارزة لغرض توجيه الانتباه إلى وجود هكذا ظاهرة في شعر المتنبي، إذ ربما سيقود هذا البحث الآخرين إلى البحث عن تناصات جديدة في شعر المتنبي أو شعر غيره من فحول الشعراء العرب.

وقد وجدتني استعمل مصادر متنوعة اشد التنوع؛ فموضوعة التناص نقلت البحث بين كتب مختلفة جداً، وفي طليعتها ديوان الشاعر وشروحه؛ وقد اعتمدت شرحين هما (الواحدي) و(البرقوقي)، وتقف قبالتها كتب عنيت بالأدب الأجنبي مثل: (مسرحية تاجر البندقية) لشكسبير، و(دليل القارئ إلى الأدب العالمي) لليليان هيرلاندز وآخرين، و(هكذا تكلم زرادشت) لنيتشه، و(الفردوس المفقود) لملتون، وملحمة الفرس (الشاهنامة) للفردوسي، و(الموسوعة العربية الميسرة) و(The new Encyclopedia Britannica).

فضلا عن: كتب نقد، مثل: (حلية المحاضرة) للحاتمي، و(الإبانة عن سرقات المتنبي) للعميدي، و(تاريخ النقد العربي) لاحسان عباس، وكتب دين، مثل: كتب الصحاح؛ (صحيح مسلم) لمسلم بن الحجاج، و(صحيح البخاري) للبخاري، و(بحار الأنوار) للعلامة المجلسي، وكتب تأريخ، مثل: (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) لطه باقر، و(قوة آشور) لهاري ساكز، وكتب أدب مختلفة، مثل: (العمدة في محاسن الشعر) لابن رشيق، و(الصبح المنبي) ليوسف البديعي، و(الأدب المقارن) لمحمد غنيمي هلال، وغيرها.

هذا، ولا ادعي الكمال لبحثي إنما عملت جهدي في أن أثير قضية جديدة في شعر المتنبي لم تعط حقها من البحث سابقاً وقد تركت الباب مفتوحاً لمن يجد في نفسه القدرة على إضافة شيء جديد. وفكرة التناص تعيد للمتنبي براءته من التقليد، وتصحح فكرة السرقات فهي أكثر من وقع حافر على حافر كما يفهمه النقد المعاصر؛ فاليوت في (الأرض اليباب) جعل قصيدته مليئة باستعارات من أبيات وعبارات لشعراء وكتاب نثر في الماضي والحاضر لأنه أراد أن يثبت انه بعد قراءاتنا لأي شاعر تصبح بعض أبياته جزءاً من خبرتنا الشخصية أو التراكم الذي يكوّن شخصيتنا وليس ثمة سرقة أو سطو[٨].

في هذه الدراسة ننأى بالمتنبي بعيداً عن أرضه العربية وعصره العباسي منفتحاً على الثقافة الإنسانية كلها، فانه لسمو شاعريته وفكره تناصَّ مع الكثير من تلك الأفنان المزهرة

الطيبة، وفي الغالب كان مبعث هذه التناصات سمو الفكر والشاعرية، وهناك تناصات كان وراءها التأثر والتأثير كما سنشير إلى ذلك.

أولا. المتنبي وميجل دي سرفانتس سفدرا:

في أبيات له قالها في معركة الحدث (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) يعرض المتنبي صورة ساخرة لجبن الروم، تناص فيها مع الروائي الإسباني ميجل دي سرفانتس سفدرا (١٥٤٧- ١٦١٦) في شخصية روايته المثيرة للجدل (دون كيشوت)، التي مثلت فارساً يعيش في عالم بعيد عن الحقيقة(٩). وقد أراد به سرفانتس السخرية من الأبطال الرومانسيين وقصص البطولة المدَّعاة حتى زمانه، الذي راجت فيه تلك القصص بشدَّة، في وقت كان الواقع الغربي يتناقض معها؛ فهو مليء بالهزائم أمام الأتراك المسلمين، وقد عانى الكاتب نفسه ذلك؛ فقد جرح في إحدى تلك المعارك(١٠) وهي معركة (ليبانتو) وشلت ذراعه مؤقتاً، وأسره الأتراك وسجنوه في الجزائر خمس سنوات (١٥٧٥- ١٥٨٠) ولم يطلق إلا بفدية باهظة من أهله، على انه سجن مرات عدة في بلاده لعجزه عن دفع ديونه المتراكمة المستمرة(١١).

صمم سيرفانتس شخصيته ليكون جباناً حد الضحك " طويل ونحيل يقارب الخمسين من العمر، يبدو خداه وكأنهما يقبلان بعضهما داخل فمه، ورقبته طولها نصف يارده"(١٢)، وعلى الرغم من كثرة تفسيرات (دون كيشوت)، فهو مثير للجدل والنقاش النقدي منذ القرن الثامن عشر، إلا أنه يطابق صورة المتنبي التي طرحها صفة للجبان الرعديد، فالضعف الجسماني لدون كيشوت، واختياره لخصومه يقنعان بصفة الجبن، فقد هاجم أولا طاحونة هواء، وكان عدوه الثاني قطيعا من الأغنام هجم عليه بقوة وشراسة، أي انه يختار أعداء لا يملكون قوة، أو هو يصارع اللاشيء ولكن عندما يظهر الرعاة يؤدبونه(١٣)، أي إذا ظهر المقاتل الحقيقي فانه يطوي سيفه ورمحه وبطولاته الأسفنجية. وهي عين وصف المتنبي للروم في قوله:

وَالعِيـــانُ الجَلِـــيُّ يُحـــدِثُ لِلظَـــنِّ زَوالاً وَلِلمُـــرادِ اِنتِقـــالا

وَإِذا ما خَلا الجَبانُ بِأَرضٍ طَلَبَ الطَعنَ وَحدَهُ وَالنِزالا (١٤)

أي أن العيان يزيل ما يحدث الظن دائما، وان الجبان يظن نفسه شجاعا إذا كان وحده فيتخيل نفسه قادرا على قهر كل شيء عظيم. ان التناص متحقق بين النصين، أما بشأن التأثير والتأثير فأرجح بقوة تأثر سرفانتس بالمتنبي وأخذه الفكرة من شعره، وذلك لان سرفانتس من أسرة نبيلة نزحت من قرطبة(١٥)، وعادة تهتم الأسر النبيلة بالعلم، كما أن قرطبة عاصمة الدولة العربية الأندلسية، وهي عاصمة من عواصم الثقافة والشعر العربي، وفضلا عن المكان كان سرفانتس قريب الزمان من تلك الثقافة؛ فقد ولد بعد سقوط دولة الأندلس بـ(٥٥) سنة، وعاصر

العرب المتبقين الذين أطلق عليهم اسم (الموريسكيون)، وكان تأثيرهم الثقافي والفكري مستمراً إلى عهد سرفانتس.

ويعزز ترجيحنا أن سرفانتس كان نهماً في قراءة الكتب، وانه مارس كل فنون الكتابة الأدبية ومنها الشعر(١٦)، وكان المتنبي أكبر رمز ثقافي وشعري عربي في الأندلس، وقد أشار ابن رشيق الأديب الناقد المغربي القريب من اسبانيا إلى ذلك بقولته الشهيرة "وجاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس"(١٧). كما أن الناقد الاسباني المعروف (اميليو غرسيه غومث يؤكد هذه الحقيقة بقوله:" إن الأندلس لم يتخلف عن بقية العالم العربي في عبادته للمتنبي، ولقد حدث هذا في زمن مبكر جداً، بل يمكن القول: انه حدث والشاعر نفسه على قيد الحياة. وعندما نقرأ ديواناً أندلسياً نلحظ في بعض الحالات ونظنّ أن وراء هذا الشعر تكمن أفكار وصور فنان الكوفة العظيم"(١٨).

ثانياً- المتنبي وأدب الملحمة:

التناص الثاني للمتنبي مع الملاحم؛ ومعروف ان العرب دون الأمم لم يعرفوا الملاحم إلا أن المتنبي المتنوع الثقافة كان على علم بخفايا وتفصيلات تلك الملاحم، ولذا خاطب عضد الدولة الفارسي بثقافة الملحمة. وهذا دأبه فعندما مدح هارون بن عبد العزيز الاوراجي المتصوف استعمل أساليب المتصوفة في مدحته(١٩)، وعندما مدح طاهراً العلوي استعمل أفكار الشيعة ومصطلحاتهم مثل (الوصي) و(النواصب)(٢٠).

وبالمثل فانه مدح عضد الدولة بثقافة الملحمة فكان ذلك منه آلية جديدة في فن المدح. والفرس كبقية الأمم الملحمية يعطون الحصان أهمية بطولية تكمل بطولة الفارس فيقوم بأعمال خارقة فحصان (رستم زال) المسمى (رخش) عثر عليه بعد جهد إذ لا يوجد حصان يتحمل قوة كفه(٢١)، وبمساعدة الحصان قتل رستم السبع الهارب والثعبان الهائل والساحرة الشمطاء وقائد الجن وقطع سبعة جبال شواهق مرصودة ومحروسة بالعفاريت(٢٢).

ولم يكن العرب جاهلين بأهمية الخيل أو تاركين تسميتها، ولكن طريقة تسميتهم للخيول تختلف عن طريقة الفرس، وقد ورث العرب معرفة الخيل والعناية بها من أسلافهم الآشوريين والبابليين، فدخول الخيل المعركة احدث تبدلات في أساليب قتال الكشيين(٢٣)، وميز الآشوريون الخيل في القتال حسب ألوانها(٢٤). وهو ما نجد نظيره عند العرب؛ ففي حين فضل العبسيون الخيول الدهم في معاركهم لملاءمتها القتال في الصحارى، استعمل فاتحو الأندلس الخيول الشقر لقوتها وصبرها في القتال بأجواء باردة ووعرة(٢٥).

وأورد المتنبي نفسه نحوا من أربعين نوعا للخيول المحاربة في ديوانه[٢٦]. أما علة تسمية العرب لخيولهم فهي للتعريف بها وحفظ أنسابها، إذ أنهم اهتموا بتثبيت سلالات الخيول الأصيلة وألفوا الكتب في انساب الخيل[٢٧] مثلما ألفوا في أنسابهم. ويذكر الصاحبي التاجي: أن هشام بن عبد الملك كتب إلى إبراهيم بن عربي الكناني: " اطلب لي في عرب باهلة من نسل الحرون"[٢٨]. وغاية ما أراده العرب من خيولهم ان تتحلى بالسرعة وهو ما تدل عليه أسماء خيولهم كـ(الطيار) و(النعامة) و(الدموك) و(ذي الجناح)، ولكنهم لم يمنحوها بعداً أسطوريا فأقصى ما وسعه خيالهم أنها في عدوها تشبه الجن، كما قال الأعشى:

وَتُصبِحُ مِن غِبِّ السُرى وَكَأَنَّما أَلَمَّ بِها مِن طائِفِ الجِنِّ أَولَقُ[٢٩]

واضح أن النفس مختلف بين العرب والفرس؛ فخيول العرب واقعية. وهم لم يقصروا التسمية على الخيول، بل كانوا يسمون الحيوانات الأليفة الأخرى أيضاً؛ فالمرقال ناقة أبي الطمحان القيني وتعني السريعة[٣٠]، وقرحان اسم كلب ظابئ البرجمي[٣١]، وغزوان اسم قط ليحيى بن نوفل[٣٢].. وغير ذلك كثير.

أما الخيول الفارسية فهي ملحمية خارقة؛ فهم يزعمون ان أمهات خيول الملك برويز مثل (شبديز) و(كلكون) لم يكنّ يحبلن من ذكر، بل كان هناك فرس من حجر وحينما يطلبن الفحل يذهبن ويمسحن أجسامهن بهذا الحجر! وشبديز هذه عدت من عجائب الملك كسرى الاثنتي عشرة، وقد نقش رسمه على الصخر وفوقه الملك[٣٣].

إن إدراك المتنبي حقيقة أن الشعوب الملحمية تمنح الحصان اسما بطوليا هو الذي حمله على ذكر أسماء خيول عضد الدولة فقال في مدحه:

بفارس (المجروح) و(الشِمال) أبي شجاع قاتل الأبطال[٣٤]

فالمجرح والشِمال فرسا عضد الدولة ويدلان على البطولة؛ فالمجروح يشير الى كثرة خوضه المعارك الطاحنة وجرحه فيها، والشِمال يدل على الشؤم أي: شؤم العدو. ولم يذكر المتنبي اسم فرس لممدوح آخر حتى سيف الدولة الذي أطال المكث عنده وذكر بطولاته فلم يترك لها حدودا الا وقف على مشارفها. وقد حاول المؤرخون الغربيون أن يضيفوا ذلك إلى سيف الدولة في معركة خرشنة (٣٣٩هـ/٩٥٠م) التي احتاجت إلى سند بطولي خارق فقال شلمبرجة:" ان الجواد الجبار الذي كان يركبه سيف الدولة قفز من قمة الجبل قفزة عجيبة فنجا بها من القتل"[٣٥]. ولكن المتنبي حين أرَّخ المعركة لم يشر إلى هذا الذي أضافه الغربيون مما ألفوه من النفس الملحمي لأنه خاطب سيف الدولة بثقافته العربية.

ولعل المتنبي الـمَّ بحكايات الشاهنامة المعروفة في بلاطات الفرس التي جمعها لاحقا الفردوسي (٤١١هـ/ ١٠٢٠م)، وفي هذا التناص نقطع بأن المتنبي تأثر بتلك الحكايات ولكن نقلها بشكل واقعي إلى شعره .

ثالثاً. المتنبي والخرافة الأوربية:

ويتناص المتنبي مع الثقافة الشعبية الغربية في شخصية (روبن هود) البطل الذي كان يجيد رمي القوس بشكل خرافي فكان يصيب أدق الأمكنة، ووقف في إحدى المرات ليسجل اكبر بطولة في رمي القوس عندما استطاع بدقة خارقة أن يصيب برأس السهم الثاني عقب السهم الأول حتى صنع قضيبا من السهام المتراصة[٣٦]. إنَّ هذه الفكرة عينها جسدها المتنبي، ففي قصيدته التي مدح بها علي بن سيار التميمي، وكان يتعاطى رمي النشاب، يصفه بهذه الصفات الروبنهودية ذاتها فهو يرسل السهام إرسالا واحداً لا تعثر فيه فيصير النصل من السهم الثاني مكان الفوْق (وهو موضع السهم من الوتر) للسهم الأول! حتى تكاد تتصل قضيباً لولا ما يعتري ذلك من الكسر.

على ان الكسر لا يبطل الصورة المشتركة فان المتنبي خشي ان يتهم بالمبالغة المفرطة فاحترز. ويصل عجب المتنبي إلى الظن بان هذه السهام التي يستعملها الأمير ذكية كبعض الأسلحة التي في زماننا. يقول المتنبي:

إِذا نُكِبَت كِنانَتُهُ اِستَبَنّا ... بِأَنصُلِها لِأَنصُلِها نُدوبا

يُصيبُ بِبَعضِها أَفواقَ بَعضٍ ... فَلَولا الكَسرُ لَاِتَّصَلَت قَضيبا

بِكُلِّ مُقَوَّمٍ لَم يَعصِ أَمراً ... لَهُ حَتّى ظَنَنّاهُ لَبيبا[٣٧]

وإذا كان المتنبي قد المّ بأخبار أهل النوبة جنوب مصر فألهمته صورته (التناصية) فان الصورة التي رسمها اقرب إلى الثقافة الشعبية الأوربية (الروبنهودية) منها إلى أخبار أهل النوبة، وكانوا النوبيون أهل إجادة عجيبة غريبة في رمي النشاب فإنهم كانوا في معاركهم يصوِّبون على أحداق العيون فيصيبونها، لذا أطلق عليهم (رماة الحدق)[٣٨]. وبسبب إجادتهم الرمي الهائلة فشلت حملات الفتح الإسلامي للنوبة التي قادها عمرو بن العاص وعقبة بن نافع، مما اضطروا المسلمين إلى أن يوقعوا مع أهل النوبة معاهدة صلح سنة (٣١هـ) عرفت بمعاهدة (البقط)[٣٩]، ولم تفتح إلا إلى العصر العباسي. إلا أن هذا التناص النادر يعود الى الخيال الخصب، لأنه ارتفع عن مستوى الواقع النوبي الى مستوى آخر حققته الخرافة الأوربية

الشعبية، ولكننا لا نرى ان المتنبي تأثر بالخرافة الأوربية لبعد المتنبي عن تلك الثقافة، بل هو التقاء تصادفي.

رابعًا- المتنبي والخرافة العالمية:

ويتصل بحديث الثقافة الشعبية تناص آخر للمتنبي كان منشؤه الخرافة التي تداولتها أمم الأرض اجمع وقد صدرت مؤلفات أخيرة أكدت حقيقة وجود خرافات وأساطير هي ليست حكراً على امة أو شعب بل هي معروفة في مشارق الأرض ومغاربها. ومن هذه الخرافات العامة خرافة المَّ بها المتنبي ووظفها في شعره وهي من الأحاديث عن الجن وكونهم يختبئون في الصور ويتجسدون بها لأنهم أشباح وأرواح بلا أجساد.

ولعل وراء ذلك فكرة دينية نقلتها الأديان السماوية الثلاثة، وقد جسَّدها ووضحها جون ملتون في ملحمته (الفردوس المفقود) وهي ان الشيطان عندما طرده الله (عز جل) قرر ان يحاربه بصنع تماثيل على هيأة الملائكة الذين اصطحبهم، ودعا الناس إلى عبادتها من دون الله وهي الأصنام التي عرفتها فيما بعد ارض كنعان والبلدان المتاخمة لها[٤٠].

ومن هنا ارتبط الشيطان والجن والأرواح بالتماثيل والأصنام والصور، وعلى هذا الأساس كان موقف الفكر الإسلامي من التماثيل والصور في زمن الرسول (ص) وما تلاه موقفا رافضاً متشدداً؛ فقد نهى الرسول (ص) عن صنع التماثيل والصور ووضعها في البيوت لان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل ولا تصاوير[٤١]، أو بيتاً فيه كلب ولا صورة[٤٢]، وهذا يرجع إلى حداثة الإسلام وارتباط التماثيل والصور بالأصنام من جهة، وارتباط التماثيل والصور بالجن والأرواح من جهة أخرى فان الجامع بين الكلب والصورة – كما جاء في الحديث السابق – هو الجن والشيطان وقد ورد عن الرسول (ص) قوله: " الكلب الأسود شيطان" و" .. انه جنها أو من جنها"[٤٣].

وعلى الرغم من استحكام الدين وزوال الوثنية فان الرسم بقي محظوراً بسبب النظرة الدينية، وهذا السبب يقف وراء الغموض الذي يلف حياة أكبر رسام ظهر في العصر العباسي وهو يحيى بن محمد بن يحيى بن أبي الحسن كوريها المعروف بالواسطي؛ فبسبب موقف الفقه الإسلامي المعارض للرسم، جهل حتى سنة وفاته فهي بعد سنة (٦٣٤هـ) وهو التاريخ الذي وضعه هو على آخر لوحاته بخطه[٤٤].

ولكن وقر في الفكر الجمعي الشعبي ارتباط الجن والأرواح بالتماثيل والصور فكان المسيحيون، كما تذكر روايات وأفلام مثل (The others) الآخرون، و(Poster Ghosts) أشباح الصور، يصورون الموتى قبل دفنهم على أمل عودة أرواحهم فبعد أن تفارق الأجساد،

تهرب إلى تلك الصور وتتجسد بها. ولعل هذه العادة قديمة عندهم؛ فقد ورد عن أم سلمة (رض) أنها أخبرت الرسول (ص) بمشاهدتها كنيسة في الحبشة يفعل فيها مثل ذلك[٤٥]. وقد استلهم المتنبي تلك الصورة الشعبية فأجاد رسمها بشكل أذهل ابن جني فوقف إزاءها متحيرا مبلساً فقال: " ما أعلم انه وصفت صورة بأنها تكاد تنطق بأحسن من هذا[٤٦]، وقد جاءت صورة المتنبي في بيت من قصيدة مدح بها بدر بن عمار. يقول المتنبي:

سَلَكَت تَماثيلَ القِبابِ الجِنُّ مِن شَوقٍ بِها فَأَدَرنَ فيكَ الأَعيُنا [٤٧]

أي أن الجن اشتاقت إلى رؤيتك أسوة بالإنس، أراد حب الثقلين له، فلما لم تستطع ذلك من دون أن تتجسد بشيء فإنها توارت في تماثيل القباب فأدارت النظر فيك من خلال عيون التماثيل. وهذا التناص يشير إلى أن المتنبي لم يهمل فكر العامة فكان جزءاً من ثقافته الشاملة، وانه في هذا التناص متأثر حتماً بتلك الثقافة.

خامساً. المتنبي والفلسفة الإغريقية:

توافرت فرصة ذهبية للحاتمي، وهو المطلع على كتب الفلسفة وأفكارها المترجمة، في أن يشير إلى ظاهرة (التناص) بين المتنبي والطرف الآخر من العالم، الا انه أضاع ذلك مدفوعا ببغضه الشديد للمتنبي، وطاعته العمياء لمولاه الوزير المهلبي فطرح التقاء المتنبي بأرسطو طرحا مشوهاً. والحق إن المتنبي اطلع على الفلسفة الإغريقية ووجد فيها مادة ثقافية جليلة فتشربها وأضاف إليها من عنداياته الكثير، فحكم المتنبي ليست أرسطية محضة، بل هي انعكاس لثقافته الواسعة وتجربته العريضة ونفسيته العارفة، ففي شعره حكم تراثية كثيرة فقوله:

وأكبِر نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ وكلُّ اغتياب جهدُ من ما له جهدُ[٤٨]

أخذه من قول الإمام علي (ع):" الغيبة جهد العاجز"[٤٩]، وكثير من حكمه مصدرها التجربة الذاتية والمعالجة الشخصية[٥٠]، والظروف القاسية التي مر بها فهو مدين لمصر بالكثير من حكمته[٥١].. وهكذا جاءت معانٍ فلسفية في شعره لم يذكرها الحاتمي. ومما أشار إليه قول أرسطو " روم نقل الطباع شديد الامتناع" . وفي ذلك يقول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقلِ

ويقول أرسطو: "إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغها". ويقابله قول المتنبي:

واذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبت فـي مرادهـا الأجسـامُ[٥٢]

وقد أشار إحسان عباس إلى إمكانية رصد معان أخرى على غرار طريقة الحاتمي لكنه لم يذكرها وبالمقابل فإن الحاتمي أورد ما لا يصلح للمقابلة فتعسف في ذلك[٥٣].

ومن التناصات التي أوردها إحسان عباس قول المتنبي:

تلـذ لـه المـروءة وهـي تـؤذي ومـن يعشـقْ يلـذُّ لـه الغـرامُ[٥٤]

فالمصطلح الفلسفي الشائع في القرن الرابع كان معروفا تماماً للمتنبي فحديث المفكرين عن اللذة والأذى يوحي بهذه المطابقة[٥٥].

إن هذه التناصات تفسر تأثر المتنبي بالفلسفة الإغريقية، ومحاولته طرح نفسه فيلسوفاً ليعلم الجيل ويرشده لتكمل بذلك شخصيته التي أراد طرحها وهي صورة القائد والمعلم، وبالتالي فانه تأثر بأرسطو وغيره من الفلاسفة الإغريق. وكان هذا التطابق نتيجة إطلاعه على الفلسفة وتفكيره الفلسفي الثاقب في أمور الحياة، فجاء ذلك مزيجاً في شعره غطى مناحي الحياة وحياة الإنسان. وكان المتنبي مطلعاً شغوفاً بالقراءة إذ كان يقرأ يومياً إلى أن ينتهي من الليل أكثره[٥٦].

سادساً- المتنبي ونيتشه:

أما التناص الآخر الذي نشير إليه فهو مع نيتشه حيث يلتقي المتنبي ونيتشه في أكثر من فكرة، وقد حلا للاثنين ان يتكلما بلسان الأنبياء فكل منهما يرى نفسه يحمل رسالة إنسانية شاملة كرسالة الأنبياء؛ فنيتشه تكلم بلسان زرادشت النبي الفارسي، والمتنبي جعل نفسه كالأنبياء في قوله:

مـا مقـامي فـي ارض نخلـة إلا كمقـــام المســـيح بـــين اليهـــودِ

أنـــا فـــي امـــة، تـــداركها الله، غريـــب كصـــالح فـــي ثمـــودِ[٥٧]

وكلاهما اصطدم بـ(الحكام) فسمى نيتشه الحكومات الصنم الجديد[٥٨] وسمى المتنبي الحكام الذين التقاهم أصناماً:

أسيرها بين أصنامٍ أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنمِ[٥٩]

ورسم كلاهما صورة البطل الخارق أو (السوبرمان) الذي يكون محله الذرى دائماً. قال نيتشه:" إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوفون الى الاعتلاء، أما أنا فقد علوتُ حتى أصبحتُ أتطلع إلى ما تحت قدمي"[٦٠]. وقال المتنبي:

ضاق ذرعاً بان أضيقَ به ذرعاً زماني واستكرمتني الكرامُ

واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصيَّ الأنامُ[٦١]

وآمن كلاهما بالقوة واستهجن الرحمة لان القوة من مبادئ التغيير قال نيتشه:" احترسوا من الرحمة لانها تعقد فوق الإنسان غماما متلبداً"[٦٢]. وقال المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحمِ[٦٣]

وإن هذا الإحساس جعلهما يظنان أن الحرب السبيل الوحيد للتغيير ولذا آمنا بالحرب حلا لا بديل لها وروجا لها. قال نيتشه:" لقد طال انتظار غيومي بين قهقهة الرعد، وقد آن لي أن أرشق الأعماق بقذائف بَرَدي"[٦٤] وقال المتنبي:

لقد تصبرتُ حتى لات مصطبرٍ الآن أقحمُ حتى لات مقتحمِ[٦٥]

وقال نيتشه في الحرب ايضا : "عليكم أن تحبوا السلم بوصفه وسيلة توصلكم إلى حروبٍ جديدة"[٦٦] وقال المتنبي أيضاً:

وإن عمرتُ جلتُ الحرب والدةً والسمهريَّ أخاً والمشرفيّ أبا

بكلِّ أشعثَ يلقى الموت مبتسماً حتى كأنَّ له في قتله أَرَبَا

قُحٍّ يكاد صهيل الخيل يقذفه عن سرجه مَرَحَاً بالغزو أو طربا

فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي والبرُّ أوسعُ والدنيا لمن غلبا[٦٧]

خامساً- المتنبي وشكسبير:

ونقف أخيرا مع شكسبير عملاق شعراء الدنيا في صورة هي أكثر من رائعة ونادرة تصور الغدر والخيانة. ففي مسرحية تاجر البندقية (The Merchant of Venice) تمنح بورشيا حبيبها بسانيو خاتم الحب وتسأله ان يعدها بالا ينزعه من إصبعه حتى الموت. الا انه اضطر إلى جعله ثمن خلاص صديقه انطونيو من الموت. وتلتقي بورشيا حبيبها وتجده من دون الخاتم فيعتذر لها وهنا تبدأ الصورة الشكسبيرية، يقول بسانيو:

بورشيا، سامحيني على هذا الخطأ غير المتعمد، وأمام هذا الجمع من الأصدقاء، اقسم على ذلك بعينيك اللتين أرى بهما نفسي.

Portia, forgive me this enforced wrong, And, in the hearing of these many friends. I swear to thee, even by thine own fair eyes,

Wherein I see myself-

فتجيبه بورشيا متحدثة إلى جمع الأصدقاء:

لاحظوا هذا جيداً! **Mark you but that!**

في كلتا عينيَّ يرى صورته المزدوجة؛ **In both my eyes he doubly sees himself;**

في كل عين واحدة..أقسم بازدواجيتك، عندها يكون قسمك موثوقاً به. **In each eye one; swear by your double self, And there's an oath of credit[٦٨].**

إن طرافة الصورة تأتي من حقيقة ان المقتربين من بعضهما يرى كل واحد منهما صورته في عين الآخر؛ فبورشيا التي اعتادت حديث القرب مع بسانيو تراه كاذبا لا يقسم بعينيها بل بصورته المزدوجة التي تنطبع في عينيها عند كل لقاء. وهذه الصورة ذاتها رسمها المتنبي

وهو يصف حبيبته التي فارقها في الشام وهو يقف أمام عضد الدولة الفارسي مجبراً. ولعل حبيبته المزعومة كانت رمزا لسيف الدولة الذي غدر به بعدما أحبه واقتربا من بعضهما البعض في لقاءاتهما حتى كان الواحد منهما يرى صورته في عين الآخر شأن بورشيا وبسانيو، يقول المتنبي:

شامية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها

فقبلت ناظري تغالطني وإنما قبلت به فاها[٦٩]

أي ان حبيبته قبّلت عينه على انها مجبرة على فراقه، ولكنها في حقيقتها مغالطة كانت تقبل فمها وصورتها المنطبعة في عينيه. وهي صورة مشتركة واضحة التناص. والراجح أن الذي جمع هذين العملاقين في هذه الصورة الخيال السامي والشاعرية المتفردة، وليس التأثر والتأثير لبعد الزمان والمكان، ولان أغلب الغربيين اهتموا بالمتنبي مؤرخا أو مفكراً أكثر منه شاعرا؛ فماريوس كنار المؤرخ المشهور الذي اهتم بشعر المتنبي لم تعجبه الروعة الشعرية فيه تلك التي نحسها نحن حين نقرأ شعره، بل كان اهتمامه منصبا لاستنباط حقائق تاريخية، ففي قوله:

أتوك يجرون الحديد كانهم سروا بجياد ما لهن قوائمُ[٧٠]

وجد كنار دليلا على ثقل جيش الفرسان البيزنطيين المسمى بالرومية **(scholorioi)** ويعني المطاردين المدججين بالحديد، الذين ركبوا خيولا مستورة القوائم برداء من الدروع يكاد يبلغ الأرض[٧١].

وكانت صورة المتنبي تشير الى مجرد الغدر، بينما كانت الصورة الشكسبيرية أكثر تعقيداً؛ لان شكسبيراً أكثر تحضراً وعمقاً من المتنبي، فأشارت صورته إلى الازدواجية سلوكاً ومرضاً، ولم تكن الازدواجية معروفة في زمن المتنبي، وكانت في عصر شكسبير مرضا لم يقتصر على الأفراد بل شمل مجتمعات كاملة. ويرد بعضهم انهيار الإمبراطورية الرومانية الى تفشي مرض الازدواجية في الشعب الروماني وحكامه على السواء.

وبعد، فهذه بعض تناصات المتنبي أردنا بها أن نشير إلى عالمية المتنبي وعالمية ثقافته ونتاجه الخالد.

هوامش البحث:

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، ص٦٤ ــ ٦٥.

(٢) الإبانة عن سرقات المتنبي، ص٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٩. إذ طابق بين بيت المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

والأبيات التي قالها البديع على لسان بطله أبي الفتح الاسكندري:

أَنَا أَبُو قَلَمُونٍ فِي كُلِّ لَوْنٍ أَكُونُ

أَخْتَرْ مِنَ الكَسْبِ دُوناً فَإِنَّ دَهْرَكَ دُونُ

زَجَّ الزَّمَانَ بَحُمْقٍ إِنَّ الزَّمَانَ زَبُونُ

لا تُكَذَّبَنَّ بِعَقْلٍ ما العَقْلُ إِلاَّ الجُنُونُ

(مقامات بديع الزمان الهمذاني/المقامة المكفوفية، ص٩٦)

(٥) حلية المحاضرة، ج٢، ص٢٨.

(٦) الحيوان، ج٣، ص٤٣.

(٧) سلطة الشعر الجاهلي على الشعر العباسي، ص١٢٤.

(٨) دليل القارئ إلى الأدب العالمي، ص٤٣.

(٩) الأدب المقارن، ص٢١٢.

(١٠) موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، ص٢٤٦.

(١١) الموسوعة العربية الميسرة، ص٩٧٨.

(١٢) دليل القارئ إلى الأدب العالمي، ص٤٥٥.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) ديوانه، ج٣، ص٢٦٢.

(١٥) الموسوعة العربية الميسرة، ص٩٧٨.

(١٦) The new Encyclopedia Britannica, p. ٧٣٧- ٧٣٩.

(١٧) العمدة، ج١، ص١٠٠.

(١٨) مع شعراء الاندلس والمتنبي، ص٦٣.

(١٩) مع المتنبي، ص١١٧.

(٢٠) ديوان المتنبي، البرقوقي، ص٢٧٤- ٢٨٧.

(٢١) الشاهنامة، ص٤٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٤٧.

(٢٣) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص٤٥٦.

(٢٤) قوة آشور، ص٢٤١.

(٢٥) ينظر حلية الفرسان وشعار الشجعان، ص٩٧.

(٢٦) المتنبي مؤرخاً، ص٢٨٢.

(٢٧) تاريخ الأدب العربي، مج٣، ج٥، ص١٩٨.

(٢٨) الحلبة في أسماء الخيول المشهورة في الجاهلية والإسلام، ص٢٢٠.

(٢٩) ديوان الأعشى، ص١٢٠.

(٣٠) الشعر والشعراء، ج١، ص٣٧٦.

(٣١) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣٨.

(٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ٧٣١.

(٣٣) الطريق إلى المدائن، ص١٢٦- ١٢٧.

(٣٤) ديوانه، ج٤، ص٢٠٨.

(٣٥) شعر الحرب في أدب العرب،ص٢٨٢.

(٣٦) دليل القارئ الى الأدب العالمي، ص٣٠١.

(٣٧) ديوانه، ج١، ص٢٧٠.

(٣٨) ينظر: مروج الذهب، ج١، ص٣٠٥؛ وأشار ياقوت الحموي إلى تلك الإجادة، وأنهم كانوا يستعملون القسي العربية (معجم البلدان، ج٥، ص٣٠٩).

(٣٩) تاريخ الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا، ص٣٧، ٣٨.

(٤٠) الفردوس المفقود، ج١، ص٧١.

(٤١) صحيح مسلم، ج٦، ص١٦٢؛ الكافي، ج٦، ص٥٢٧.

(٤٢) صحيح البخاري، ج٤، ص٨٢؛ بحار الأنوار، ج٦٣، ص٥٣.

(٤٣) لقط المرجان في أحكام الجان، ص٢١.

(٤٤) الواسطي يحيى بن محمود بن يحيى رسام وخطاط ومذهِّب ومزخرف، ص١٩.

(٤٥) ينظر صحيح البخاري، ج١، ص١١٢.

(٤٦) شرح الواحدي، ج١، ص٢٣٦.

(٤٧) ديوانه، ج٤، ص٣٣٥.

(٤٨) ديوانه، ج٢، ص٩٥.

(٤٩) شرح نهج البلاغة، ج٩، ص٤١.

(٥٠) المتنبي بين ناقديه، ص٣٤٩.

(٥١) مع المتنبي، ص٦٣٥.

(٥٢) الرسالة الحاتمية، ص٢٤.

(٥٣) عباس، إحسان، تاريخ النقد العربي، ص٢٤٨.

(٥٤) ديوانه، ج٤، ص١٩٥.

(٥٥) تاريخ النقد العربي، ص٢٤٩.

(٥٦) البديعي، الصبح المنبي ، ص٩٥.

(٥٧) ديوانه، ج٢، ص٤٨.

(٥٨) هكذا تكلم زرادشت، ص٧٣.

(٥٩) ديوانه، ج٤، ص٢٩١.

(٦٠) هكذا تكلم زرادشت، ص٩٥.

(٦١) ديوانه، ج٤، ص٢١٧-٢١٨.

(٦٢) هكذا تكلم زرادشت، ص١١٦-١١٧.

(٦٣) ديوانه، ج٤، ص٢٣٨.

(٦٤) هكذا تكلم زرادشت، ص١١٠.

(٦٥) ديوانه، ج٤، ص١٥٧.

(٦٦) هكذا تكلم زرادشت، ص٢٧٦.

(٦٧) ديوانه، ج١، ص٢٤٨- ٢٤٩.

(٦٨) تاجر البندقية، ص٢٢٥- ٢٢٦.

(٦٩) ديوانه، ج٤، ص٤٠٥.

(٧٠) ديوانه، ج٤، ص٩٩.

(٧١) شعر الحرب في أدب العرب، ص٣٠٦.

المصادر والمراجع:

١- الإبانة عن سرقات المتنبي، العميدي، محمد بن أحمد (ت)، تحقيق إبراهيم الدسوقي،(القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١).

٢- الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال،(بيروت، دار العودة، ١٩٨٧).

٣- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، (ت ١١١٠هـ)،(بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٤هـ).

٤- تاجر البندقية، وليم شكسبير، عربي – انكليزي، ترجمة عبد الرزاق محسن الخفاجي (بيروت، دار الهلال، ٢٠٠٨).

٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله الى العربية د. عبد الحليم النجار، (قم، دار الكتاب الاسلامي، ٢٠٠٥).

٦- تاريخ الإسلام في افريقيا وجنوب شرق آسيا، صباح إبراهيم الشيخلي، عادل محي الدين الآلوسي، (بغداد، مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٧).

٧- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط٤،(بيروت، دار الثقافة ،١٩٩٢).

٨- الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام، الصاحبي التاجي (ت بعد ٦٩٧هـ) تحقيق د. حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الاول- المجلد الرابع والثلاثون، كانون الثاني ١٩٨٣.

٩- حلية الفرسان وشعر الشجعان، ابن هذيل (ت ٧٦٣هـ)، (بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٧).

١٠- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، الحاتمي محمد بن الحسن، تحقيق د. جعفر الكناني،(بغداد، دار الرشيد، ١٩٧٩)

١٠- الحيوان، الجاحظ، عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨).

١١- دليل القارئ الى الأدب العالمي، ليليان هيلاندز وآخران، ترجمة محمد الجورا ط١، (لبنان، دار الحقائق، ١٩٨٦).

١٢- ديوان الأعشى، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، ط٣ (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣).

١٣- ديوان المتنبي بشرح عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٠).

١٤- ديوان المتنبي بشرح الواحدي، الواحدي علي بن احمد (ت ٣٥١هـ) تحقيق فردريخ ديتريصي (برلين، ١٨٦١).

١٥- الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو، تحقيق فؤاد افرام البستاني، (بيروت، ١٩٣١).

١٦- سلطة الشعر الجاهلي على الشعر العباسي، الدكتور محمد تقي جون،

١٧- الشاهنامة، ابو القاسم الفردوسي (ت٤٠٩هـ) ترجمة سمير مالطي ط١،(بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧).

١٨- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محي الدين عبد الحميد، ط٢، (مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٢)

١٩- شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، زكي المحاسني، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١).

٢٠- الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) (القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٢).

٢١- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، يوسف البديعي، تحقيق مصطفى السقا، محمد شتا، ط٣، (القاهرة، دار المعارف، د.ت).

٢٢- صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل،(ت ٢٥٦هـ)،(بيروت، دار الفكر، د.ت).

٢٣- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، (ت٢٦١هـ)،(بيروت، دار الفكر، د.ت).

٢٤- الطريق إلى المدائن، احمد عادل كمال، (بيروت، دار النفائس، ١٩٧٢).

٢٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني،(ت ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، (القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٦٤).

٢٦- الفردوس المفقود، جون ملتون، ترجمة وتقديم محمد عناني،(بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٢).

٢٧- قوة آشور، هاري ساكز، ترجمة عامر سليمان، (بغداد، ١٩٩٩).

٢٨- الكافي، الكليني، ثقة الإسلام (ت ٣٢٩هـ)،(طهران، دار الكتب الإسلامية، د.ت).

٢٩- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، الصاحب بن عباد، (ت٣٨٥)، تحقيق محمد حسين آل ياسين، (بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٥).

٣٠- لقط المرجان في أحكام الجان، السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، دراسة وتحقيق مصطفى عاشور،(بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٥).

٣١- المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، محمد عبد الرحمن شعيب،(القاهرة، وزارة المعارف، ١٩٦٤).

٣٢- المتنبي مؤرخاً، الدكتور محمد تقي جون (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٧).

٣٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (٣٤٦هـ) (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٩).

٣٤- مع شعراء الأندلس والمتنبي، اميليو غرسيه غومث، ترجمة: الدكتور طاهر أحمد مكي (القاهرة، ١٩٧٤).

٣٥- مع المتنبي، الدكتور طه حسين،(القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦).

٣٦- معجم البلدان، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، ط٢،(بيروت، دار صادر، د.ت).

٣٧- مقامات بديع الزمان الهمذاني، أحمد بن الحسين (٣٩٨هـ)، تحقيق: الشيخ محمد عبده ط٤، (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦).

٣٨- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر، ط٢، (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦).

٣٩- موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، الدكتور موريس حنا شربل،(لبنان، دار جروس برس، ١٩٩٦).

٤٠- الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، ١٩٨٧).

٤١- هكذا تكلم زرادشت، فردريك نيتشه، ترجمة فليكس فارس، (بيروت، دار القلم، د.ت).

٤٢- الواسطي يحيى بن محمود بن يحيى رسام وخطاط ومذهب ومزخرف، عيسى سلمان، (بغداد، مطبعة التايمز، د.ت).

٤٣- The new Encyclopedia Britannica, volume ١٥ (USA, ٢٠٠٢)